حوار مع جاك بيرك

رحلة الفيلسوف المستعرب من التراث الى الوحدة

لم يكن هم البحث والدرس للثقافة العربية ، ماضيها وحاضرها ، هو الخط المميز فقط لانتاج المفكر المعروف جاك بيرك ، بل شغل هذا الفيلسوف الفرنسي الكبير نفسه دائما بمستقبل العرب في وحدتهم السياسية وانبعاث حضارتهم على مستوى تحديات العصر .

ولقد رات مجلة « الفكر العربي » ان تستشف خلاصة الموقف الحضاري الذي نمت اليه تجربة فيلسوفنا خلال معايشته الفنية الكثيفة والمديدة لتطورات النهضة العربية الجديدة ، بنكساتها ووثباتها .

ولعل اهم ما يلفت المثقف العربي من خطوط هذا الموقف للفيلسوف بيرك هو الفهم الخاص لوحدة العرب على اساس من مرحلية التعددية بين اربع وحدات اقليمية ان صح الوصف ، تأتي بنوع من اسبقية المكنات الاستراتيجية التي ان تحققت ، عجلت بقيام الوحدة العربية الشاملة على اساس من التنوع والتكامل الحضاري بين مختلف الخصائص الاقليمية التي تتفاعل ، كما تفاعلت تاريخيا ، لتنتج الشخصية القومية الواحدة المتناظرة .

وهنا ينزع فكر بيرك ، عبر آفاق تاملاته ، الى اعادة طرح لمشكلة الاطار الجغرافي الثقافي الذي يمكن لحضارة العرب الجديدة ان تتفاعل ضمنه ، وهو اطار الشواطىء المتوسطية شمالها وشرقها وجنوبها ، بحيث تتواصل حضارات هذه الشواطىء المزدهرة مرة اخرى ، ولكن ليس عبر التصادم والتصارع الذي مرت عبره تجربة العلاقة بين العرب والشعوب اللاتينية المتوسطية ، انما بما يشبه ثانية العهد التاريخي المجيد الذي كان المتوسط فيه يعتبر بحيرة عربية ، اي عبر تواصل حضاري انساني على مستوى العصر .

هذه الافكار الماضية والمستقبلية يعيد تاصيلها جاك بيرك بما يشبه الحلم التاريخي الجديد لطلائع المثقفين العرب والاوروبيين من اجل حوار حضاري جديد يكون قادرا في يوم من الايام على تحقيق هذه اليتوبيا .

ومتى كان التاريخ الا سلسلة من اليتوبيا بعضها ينجح فيمسي واقعا ، والاخر يظل يتحدى ممكنات الشعوب لتقلب المستحيل الى تاريخ حي مبدع .

أجرى الحوار
بدر الدين عرودكي

ـ اعطيت كتابك الاخير عنوان ARABIES ، كما لو انك اردت ان تؤكد على علامة الجمع بالدرجة الاولى . غير ان العرب يعتبرون انفسهم واحدا ، فلم التاكيد على التعدد اذن ؟

جاك بيرك : حسنا ، قبل كل شيء اسباب اختيار هذا العنوان . فالى جانب البلاد العربية الحقيقية ، افكر ايضا بالبلاد العربية الخيالية . ذلك ان الحلم جزء من الواقع ، بل جزء من الواقع العربي على وجه الخصوص . ضمن هذه الشروط كل شيء على ما يرام . الا انه يجب الترجيح بين الحلم والتاريخ. وبعبارة اخرى لا يغدو الحلم صالحا تاريخيا الا بشرط ان يتفاضل مع التاريخ ؛ ومن المؤكد ان التاريخ بلا حلم ليس تاريخا يؤدي الى الواقعي .

اقول هذا لاضيف القول : انك قد اشرت بحق الى محور من محاور هذا الكتاب واعني به جدلية الواحد والمتعدد .

هذه الجدلية جوهرية في عملية تطور العرب ، وفي وضوح كل ما يقومون به في العالم المعاصر، فيما اظن . ولا شك ان ما عاناه العرب من فشل في مجال اعز المشاريع بالنسبة لهم ؛ انما نتج عن عدم تحليل هذه الجدلية تحليلا كافيا .

ـ ولكن كيف ننظر الى هذه التعددية على مستويين : مستوى الثقافة العربية ومستوى الوحدة السياسية العربية ؟

جاك بيرك : الواقع ان الوحدة السياسية والثقافة هما في آن واحد عنصران في تركيب هذه الجدلية ونتيجتان لها . ولنتناول الامور من بداياتها ان شئنا . من المؤكد ان كل اولئك الذين يعتبرون انفسهم عربا اليوم ينطلقون من الوحدة التي جمعت ــ منذ زمن بعيد ولا شك ، الا ان آثارها ما تزال حية ــ الشعوب من جنوبي شرقي آسيا وحتى العالم الثاني ؛ مع مراكز لمعت بشكل خاص كسورية الامويين، ومصر الطولونيين ، ومغرب الادريسيين ، واندلس الامويين .

هناك اذن هذا الاساس الوحدوي الذي يملك في نظر العرب اليوم قيمة واقع . واذا كان يشكل حقيقة تاريخية مؤكدة تمام التأكيد؛ فانه كذلك اسطورة . وباسم هذا الجانب المزدوج لهذا الاساس ، الواقعي والاسطوري ، انما تصرف العرب في ظل الاستعمار ضد التجزئة الاجبارية التي فرضتها عليهم الامبراطوريات الاستعمارية : هنا الفرنسيون، وهناك الانكليز وبعيدا العثمانيون او الايطاليون .. الخ . وباسم الوحدة انما تابع التحرر من الاستعمار هذه الاساطير Mithes . واني لا ازال اذكر ان السلطان محمد الخامس قد قطع علاقاته بالمقيم الفرنسي بجملة واحدة وردت في خطابه الشهير في طنجة عام ١٩٤٧ ، أعني استشهاده بالجامعة العربية . بهذا الاستشهاد بالوحدة او بالجامعة ــ لان الجامعة تعني مجرد تجميع ــ انما فتح محمد الخامس المرحلة النشيطة من مراحل التحرر المغربي في ذلك العام .

ـ هل تعني ان الوحدة العربية كانت في اساس التحرر من الاستعمار ؟

جاك بيرك : نعم ؛ غير انه ما ان يتم

تحقيق التحرر حتى تتوالى مواكب المسؤوليات . فما الذي قام على انقاض الامبراطوريتين الفرنسية والانكليزية : امم أم شبه امم أم مجرد دول ؟ مما يثير الفضول مثلا : ان الكويت حين اعلنت استقلالها منذ زمن قريب لم تطلق على نفسها امة ، وانما دولة الكويت كما تعرف . الدول هي التي انبثقت فوق انقاض الاستعمار وليست الامم. لماذا ؟ ليس ذلك لغياب الشعور الوطني بل على العكس تماما ، بل ولان الشعور الوطني ما يزال في معظمه وحدويا حتى في اكثر البلدان العربية تفردا ، في البلد المتفرد عبر آلاف السنين من التاريخ ، اعني مصر .. حتى في مصر التي هي البلد العربي الوحيد الذي تستخدم فيه كلمة امة بمعنى الشعب المصري ، اقول حتى في مصر ؛ فان العامل العربي لعب وما يزال يلعب دورا كبيرا .

ـ لنعد مرة اخرى الى فكرة التعدد . ان من العرب من يخشى ان تؤدي هذه الفكرة الى تبرير نزعات انفصالية ما يزال دعاتها ، باسم التعدد ، حاضرين هنا او هناك !

جاك بيرك : ذلك لانهم لم يستخدموا التعليل أو المحاكمة الجدلية ، ولانهم يرون في التعددية عدوا للوحدة . اما انا فاعتقد ان عدو الوحدة هو الوحدوية Unitarisme .

ـ الوحدوية ؟

جاك بيروك : عدو الوحدة هو الوحدوية، اعني ارادة معادلة او صهر الكل ، أي الغاء التباين الداخلي .

ما الذي تعلمنا اياه الانتروبولوجيا ؟ انها تعلمنا انه ليس هناك وحدة بدون تباين قائم داخلها . فليس تنوع الاقاليم هو الذي يصنع ضعف فرنسا ؛ وانما على العكس ؛ فان ما يمكن ان يسبب هذا الضعف ، هو تماثلها . ان هذه الملاحظة الانتروبولوجية تنطبق على الجميع . يجب عدم الخلط بين الوحدة Unité والوحدوية Unitarisme . لكن العرب ما يزالون يدعون الى الوحدوية ، ولم يقوموا حتى الان بالدعوة الى الوحدة .

ـ حسنا ، يعرف المثقفون العرب انك من اكثر المثقفين الغربيين ادراكا لنزوع العرب نحو الوحدة بل من الداعين لها . ما هي برايك العوامل والمعيقات التي تحول بين وحدة العرب الثقافية ان تلد اليوم وحدة سياسية حقيقية ؟

جاك بيرك : اولا ، اذا كنت من انصار الوحدة العربية . نعم ، انني من انصار الوحدة العربية التي احالها كثير من العرب انفسهم الى ميدان الاساطير اليوم . انهم يتحدثون عنها ، لكنها تصبح في حديثهم موضوع فصاحة وبلاغة لا موضوع مشروع ينتظر التحقيق. في حين انني لا اكتفي باعتبارها صالحة ضمن الخط التاريخي لكل الامة العربية ، لكل الواقع العربي ؛ وانما اعتبر ايضا انها الاداة الوحيدة التي تقدم للعرب امكانات اعادة النظر في بعض اكبر الشرور واكبر الصراعات التي يعاني منها العالم العربي . وعلى سبيل المثال، لو كانت هناك وحدة في المغرب العربي ، اعني بالمغرب هنا مجموع الشمال الافريقي ، هل كان يمكن ان تثار مشكلة كمشكلة الصحراء

الغربية ضمن اطار وحدة المغرب ؟ ولو كانت هناك وحدة حقيقية لما كان يطلق عليه الهلال الخصيب ، اعني تلك المجموعة التي تبدأ من فلسطين وتنتهي بالعراق ، هل كان يمكن للقضية الفلسطينية ان تتفاقم على النحو الذي شهدناه ونشهده ؟.

ودون ان امضي الى حد الحديث عن وحدة شاملة تضم الكل من الخليج الى المحيط ــ اذ انني ، ربما لانني غربي ، آخذ بعين الاعتبار هنا ايضا الواقع الاجتماعي ــ الاقتصادي ومشكلات التكامل ؛ بل وحتى الهويات المحلية ــ اعتقد ان بوسع العالم العربي واقعيا ان يتوحد مؤقتا على الاقل ضمن اربع وحدات كبرى او اربع مجموعات جزئية Sous-ensembles او اذا شئت اربع قرابات كبرى : الشمال الافريقي ، وادي النيل ، الهلال الخصيب ، الجزيرة العربية . اذ مما يمكن ملاحظته ان في كل واحدة من هذه المجموعات الجزئية تجانسا قويا في الطبع العيني : ولا اعني مجرد التطلعات بقيمها العينية ، وانما الاشياء الاشد عينية منها ، اي الاقتصاد وسوسيولوجيا الجماعات والجدلية ؛ وهلم جرا ..

وباختصار : اعتقد انه اذا ما امكن انجاز تكوين هذه المجموعات الجزئية ، فان العرب سيجدون فيها وسائل لحل جزء كبير من اكثر مشكلاتهم الحاحا .

ــ اليس هناك ــ بالاضافة الى المعيقات الذاتية في تحقيق الوحدة ــ معيقات خارجية؟ الا تلعب الامبريالية دورا حاسما في هذا الاتجاه ؟

جاك بيرك : بالطبع . اذ لا يمكن اغفال وطأة الامبريالية في هذا المجال . وانه لمن السذاجة الظن بأن ظهور الدول العربية الجديدة على انقاض الامبراطوريات الاستعمارية القديمة قد خلص العرب نهائيا من كل تاثيرات الاستعمار . بل ان من الممكن القول ــ لاكثر من سبب ــ ان الاستعمار الجديد الذي يحكم العالم اخطر بكثير من الاستعمار القديم او الكلاسيكي . اذ انه يعفي المسيطرين الحقيقيين على مقدرات الشعوب من مسؤولياتهم ، ويجعل سيطرتهم هدامة فعلا. بينما لم يكن من مصلحة المستعمرين القدماء ان يهدموا . خذ الفرنسيين مثلا الذين ، رغم كل مصالحهم الخاصة التي كانوا يسعون لها في استعمارهم المغرب والجزائر ، لم يكن من مصلحتهم هدم هذين البلدين .

ــ حسنا ، ما هي مصلحة اوروبا مثلا في ان ترى الوحدة العربية قد تحققت سواء ضمن الصيغة التي طرحتها او ضمن اي صيغة اخرى ؟

جاك بيرك : على المستوى الفرنسي ، اعتقد ــ على كل حال ــ ان تجمعا في شمال افريقيا سيكون قابلا لان يحسن ــ بالتدريج ــ جو العلاقات الفرنسية المغربية . واكرر مرة اخرى انني اعني بالمغرب مجموع شمال افريقيا . كما ان مثل هذا التجمع سيمنح المغاربة وعيا بقوتهم لم يستكملوه بعد كليا . وستكون العلاقات التي سيطورونها مع المستعمر القديم مرة اخرى ومن نواح عديدة خالية من العقد . اما فرنسا فستكون مدعوة بهذا التجمع لكي لا تجعل علاقاتها مع المغرب العربي الكبير تعتمد نسبيا على تنوع النظم وما

تقدمه من تسهيلات . وباختصار ، سوف ينتج عن وحدة المغرب العربي ــ مثلا ــ تحسن ملموس في طبيعة العلاقات بين فرنسا وشمال افريقيا .

ــ وبالنسبة لمجموع العالم العربي ، او كما تحب ان تقول الشاطىء الاخر من المتوسط . ما هي مصلحة اوروبا في مواجهة عالم عربي موحد على الاقل اقتصاديا وثقافيا ؟

جاك بيرك : اننا ندخل هنا في ميدان التفكير الاستراتيجي .

ــ بالتاكيد !

جاك بيرك : بل وفي مجال الاستراتيجية العالمية . اعتقد ان كل امم العالم هي الان رهن مستقبل وتطور الخصومة المهيمنة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي .

فلنتخل عن الاوهام . كل امم العالم ، فيما عدا هاتين الامتين ، مرتبطة بتطور هذه الخصومة . وحتى حين تعلن بعض الشعوب ، والشعوب العربية من بينها ، عدم انحيازها ، فان من الخطورة بمكان الظن بانها قادرة على الفكاك من آثار هيمنة هذه القوة او تلك سواء في اتفاقهما او في صراعهما . واذا كان ذلك ينطبق على فرنسا بدرجة اقل حدة فمما لا شك فيه ان مستقبلها يتوقف على مآل هذه المعركة المهيمنة . وسيظل هذا المستقبل رهنا بمآل هذه المعركة ما لم تحقق فرنسا بذاتها اداة ذات ثقل خاص قادرة على ان تتخلص بها من هذا الاهتزاز وتلك الظروف . وبمعزل عن كل فكرة او اختيار ايديولوجي او سياسي فرنسي بالطبع ، اعتقد بأنه على كل سياسة عربية ان تنزع الى تحقيق هذه الاداة . وبعبارة اخرى ان تعمل كل سياسة عربية على جعل ذراع الميزان الذي تطلق عليه اللغة العربية هذه التسمية الجميلة «الرجحان» عموديا تحت طائلة الانسحاق تحت ثقل القوتين المتخاصمتين الموجودتين على كفتي الميزان ...

كيف يمكن مضاعفة هذا الثقل الخصوصي ؟ ان فكرة الوحدة الاوروبية تستجيب لهذا المشروع . ولكن كم سيتضاعف هذا الثقل لو تعاون العرب مع اوروبا ايضا لتحقيق هذا التوازن ، وخاصة اذا تم هذا التعاون بين فرنسا والامم المتوسطية .

واعترف لك ان اتجاه نظري نحو تحقيق مثل هذا التوازن هو اتجاه قد املته علي اختيارات حياتي نفسها . لقد دارت حياتي بين اللاتينية والهيلينية وبين العالم العربي . وبعبارة اخرى استطيع القول ان موطني (وليس وطني ، لان وطني هو فرنسا) هو ما بين الامم اللاتينية والامة العربية .

ــ تقول ان للعرب دورا استراتيجيا في تحقيق هذا التوازن . كيف تتصور هذا الدور ؟

جاك بيرك : انه ــ على كل حال ــ لن يكون دور سباق او رهان يعمل فيه كل طرف على الشد الى ناحيته او يجهد في الاغتصاب ، وانما على العكس ، سيكون دورا فعالا في تحقيق التوازن ؛ حيث سيتاح لنا ان نشهد عودة وتحقق حلم الامويين ، الذي كان ايضا حلم العثمانيين . . اعني ان تعض الافعى ذنبها . اي ان هناك عصرا سياسيا وثقافيا يخيم على

المتوسط . ماذا يعني ذلك ؟ يعني ذلك ان على اقدم اطراف الحوار ، الحوار بين العرب وبقية العالم ، أي العرب واللاتينيين ، ان يعمقوا من حوارهم ويخلقوا مجالا سمانتيا ، مجالا ثقافيا ، مجالا اقتصاديا ؛ بل ومجالا سياسيا في يوم ما .

ـ يرى عدد من المفكرين العرب ان ازمة العرب الراهنة هي نتيجة الدعوة للسير في طريقين متباعدين ان لم نقل متعارضين ، احدهما يتجه نحو الاصول والاسلاف ، والاخر يتجه نحو التماهي في الثقافة الغربية . ومن ثم فان ابداعية العرب الراهنة تبدو رهن هذه الازمة .

جاك بيرك : اعتقد ان هناك شروطا خاصة واولية لكل ابداعية ، ثقافية كانت ام غير ثقافية ، وهي شروط تنحل في شرط واحد هو شرط الحرية . ولاسباب مختلفة ، لا تبدو لي حرية الابداع مكفولة او ممارسة بما فيه الكفاية في العالم العربي حاليا . من بعض هذه الاسباب انه بخلاف الوهم السائد لدى بعض العرب ولدى الاجانب ، فان العرب لم يكونوا امما متعددة انبثقت على انقاض الامبراطوريات الاستعمارية ، وانما قد شكلوا دولا جديدة . ولهذه الدول مصالح خاصة بها تعمل للحفاظ عليها . وهي ، فضلا عن ذلك ، مختلفة عن الدول الاوروبية من حيث انها سابقة على الامم ، في حين ان الدولة في أوروبا هي تعبير عن الامة وتمثيل لها الى حد ما . ولهذا فالحرية ، وخصوصا حرية الابداع ، ليست هي التي تميز مسيرة العرب الراهنة . ومن هنا فان كثيرا من العرب يعتبرون ، وهم على حق في ذلك ، ان مصر مثلا في فترة ما بين الحربين كانت اكثر ابداعا على كثير من الاصعدة ، وخاصة على المستوى الثقافي من مجموع البلدان العربية . فأين نجد ، بدءا من الحرب العالمية الثانية وفي ظل التحرر من الاستعمار في مصر نفسها ، مثل هذه المجموعة من اكثر العبقريات اختلافا وتنوعا : كشوقي وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وزكي مبارك وغيرهم ؟ اننا لا نجدها في اي مكان . ومع ذلك فان علينا ايجادها ، علينا ان نجد الكثير من المبدعين في العالم العربي في كل المجالات ، وليس في المجال الادبي فقط .. غير ان الشرط الاول لذلك هو الحرية: حرية المثقف وحيوية المثقفين المدعوين في العالم اجمع لان يلعبوا دورا كبيرا .

اما برمجة هذه الابداعية . وهذا هو محور سؤالك فيما اظن ، فانه يطرح مشكلة حاسة لدى العرب . والحق اننا نمس هنا احدى هذه التناقضات التي الح عليها كثيرا في دراساتي . ان ابداع العرب الحديث ، وحتى كينونة العرب نفسها ، يسيران في طريقين متباعدين اذا مضى العرب الى غاية كل منهما ؛ فستكون النتيجة تشتت هوية العرب وانفصام العقلية العربية ، اعني بهذين الطريقين : الاصالة دون الحداثة او الحداثة دون اصالة . والحق اننا هنا بازاء مشكلة مزيفة .

ـ لقد فهمت الحداثة ومورست على مستوى استيراد التكنولوجيا .. وكان ذلك يؤدي بطبيعة الامر الى التماهي في ثقافة الاخر ..

جاك بيرك : بالتأكيد ..

ـ ان الاستمرار في هذا الفهم وهذه الممارسة سيؤدي الى ضياع الهوية التي يجب البحث عنها في اعماق التاريخ .

جاك بيرك : لا تكف التكنولوجيا عن ان تكون محض استهلاك ، اي عبودية لمنتجها الحقيقي ، الا عندما تصبح هي نفسها ابتكارا . كما ترى فاننا نلتقي مشكلة الابداعية في كل مجال .

فليس الهدف ان يبني العرب في هذا المكان او ذاك مصنعا رائعا من آخر مبتكرات التقنية الحديثة ، اذ ان التقنيين في هذا المعمل سيكونون اجانب او عربا تدربوا وتعلموا في البلاد الاجنبية لتسيير هذا المعمل . وانما الهدف ابتكار التكنولوجيا او الاسهام ـ على الاقل ـ بنسبة مشرفة فيمجموع الاكتشافات التقنية في عالمنا المعاصر .

خذ مثلا براءات الاختراع . ما هو عددها السنوي في العالم العربي ؟ اذا بحثنا وتعمقنا في هذه المسألة وجدنا ان المبتكرين العرب انما يبتكرون خارج بلادهم .. تلك مشكلة اخرى ، مشكلة هجرة العقول ، التي هي الى حد ما نتيجة عدم كفالة شرط كل ابداع : الحرية .

ـ لنعد الى فكرة الهوية ، فهي محور ابحاثك الاخيرة . يعترض البعض على هذه الفكرة على اساس ان الهوية لا تخضع للتاريخ . اما مفهومك للهوية فهو تاريخي .

جاك بيرك . بالضبط .

ـ كيف تحدد الهوية اذن ؟

جاك بيرك : هنا ايضا ، كما هو الامر في مشكلة الواحد والمتعدد، نلتقي قصور قطاعمن الفكر العربي عنادراك الاشياءجدليا. فالبعض يطرح الواحد والمتعدد كعدوين دون ان يرى ان تركيبهما هو في تجاوزهما ، اي في طرحهما بصراحة . وينطبق ذلك ايضا على الاصالة والحداثة . ان الهوية لا تنفصل عن التاريخ. ولكن لكي نحافظ على الهوية عبر تتابع الاطوار التاريخية لا بد من وجود ثوابت ، وبدون هذه الثوابت سيكون الامر تغيرا في الكينونة . هل ثمة من يقول بوجود كائن يحل محل آخر في مراحل حياة الانسان طفلا ومراهقا وراشدا ؟ اليس هو نفس الكائن الذي يتطور ؟ ان ذلك ينطبق ايضا على الشعوب .

ـ من الهوية الى الاصالة الآن . لقد تحدثت في كتابك « كلمة العرب للعالم الجديد » عن القاعدة التي يرتكز عليها تقدم الشعوب . هذه القاعدة هي الطبيعة الثقافة ، الطبيعة مثقفة والثقافة مطبعة . اذا عدنا الى تحديدك لقاعدة العرب ، فانها ليست ثقافة العصر الجاهلي فحسب وانما الاسلام ايضا متجسدا في القرآن .. اننا نحاذي هنا حدود الميتافيزيقيات ..

جاك بيرك : ليست الاصالة مفهوما ميتافيزيقيا ، وانما هي مفهوم سوسيولجي. انها علاقة الامة بقواعدها . لكن حذار ، فهذه القواعد معقدة . هناك بالطبع قواعد طبيعية وبيئية ، الا ان هناك ايضا قواعد اركيولوجية اذا جاز القول وقواعد ثقافية . الاسلام بالنسبة للعرب ، هو اقوى القواعد الثقافية . ومن هنا دور الاسلام في الحداثة ، ويجب ان يعكف على دراسته كل المفكرين العرب تحت

طائلة اهمال احدى اهـــم المشكلات المتعلقة بكينونتهم الراهنة .

ـ دور الاسلام بوصفه دينا وممارسة شعائرية ام بوصفه اطارا ثقافيا ؟

جاك بيرك : ان ما اعنيه بالاسلام طبعا هو الجزء الاهم من التراث . انني اترك جانبـا وبشكل مؤقت الجوانب الميتافيزيقية التـي لا تدخل في اهتمامنا والتي يمكن تناولها ان شئت ، الا ان هذه الجوانب الميتافيزيقية في النهاية ، وهي جوهرية بالنسبة للمؤمن ، قابلة للفصل فـي تحليلنا الحـالي عـن الجوانب السوسيولوجية ، وهي ميدان اهتمامي فـي الوقت الراهن .

ـ ومع ذلك فان هذا الاهتمام بالاسلام لم يكن حاضرا ضمن جملة اهتمامات الحركة الماركسية العربية في مرحلتها الستالينية ، أي في المرحلة التي كان يعتبر فيها الدين ، كل دين ، افيونا للشعوب ، وهي مرحلة عومل فيها الاسلام كجزء من تراث العرب المتخلف بدلا مـن ان يعامـل كاطار ثقافي او كاطار انتماء ..

جـاك بـيرك : اذا كان الديـن افيون الشعوب وفق مزحة ماركس ، اذ لم تكن سوى مزحة او فورة ان شئت ، واذا كانت غـالبية الشعب بناء على ذلك تدخن الافيون الا تنتج عن ذلك ، الا يجب ان تنتج عن ذلك نتائج محددة بالنسبة لمحدثينا الجريئين ؟ والا فلمن يتوجهون بعظاتهم ، لمجموع الشعب ام للصفوة المختارة اي لانفســهم في النهاية ؟ الا يجب التساؤل عـن السبب الـذي جعـل من الشيوعية اقل تحققا في العالم العربي منها في اي منطقة اخرى من العالم ؟ لقد كان هنـاك عدد مهم من الماركسيين العرب الذين كانوا ايضا من اذكى واهم المثقفين العرب . ومـع ذلك فان الماركسـية في العالم العربي لم تكن في نظري سوى تربية ، ولم تتحقق سياسيا على الاطلاق .

واذا كان ثمة ثورات ، فقـد صنعهـا الآخرون من غير الماركسيين ، لا الماركسيون ؛ وحين حاول الماركسيون مثل هذه الثورات ، فشلوا في تحقيقها .

الا يتوجب علينا استخلاص النتائج ؟

اذا وضعنا انفسنا على صعيد التاريخ بوصفنا ماركسيين جيدين ، وانت تعلم ان الماركسية ليست غريبة علي ، بل انها تلعب دورا كبيرا في ابحاثي ، فانا اتحدث عـن الجدلية ، والجدلية المعنيـة هـي الجدليـة الهيغلية الماركسية . اقول اذا وضعنا انفسنا على صعيد التاريخ فاننا مرغمون علـى النظر الى الافكار لا كمجردات ؛ وانما كتحققـات عينية تتم من اجل الشعب وبقدراته وفيه .

الا يتوجب علينا استخلاص النتائج ؟

الم يكن من السخرية ادعاء تجريد الدين في مجموعة من البلدان يمارس فيها هذا الدين من قبل جميع الطبقات الاجتماعية بنسبة ربما قاربت ٩٠ ٪ ؟ ومن تمثل نسبة الـ ١٠ ٪ الباقية ؟

ـ اذا اخذنا جانبا آخر مـن جوانب الحيـاة العربية المعـاصرة نلاحظ ان نموذج المجتمع الاستهلاكي الغربي يغزو بنية التنمية العربية حاليا . ما هي النتائج التي سيتمخض

عنها ذلك بالنسبة لنهضة العرب المعاصرة برأيك ؟

جاك بيرك : حسية جامحة لدى قطاع كبير من الشباب العربي ، وانحدار المثالية بالمعنى النبيل لهذه الكلمة في السلوك ، فضلا عن ان معظم الدول لن تهتم بالحاح الا بالمظاهر المادية من الحياة مهملة القيم . أي ان معظم هذه الدول ستخضع للثورات التي تقوم هي نفسها باسم القيم .

ـ انك تتابع عن كثب وبشكل دائم حركة الفكر العربي وخاصة من خلال الكتاب والمبدعين والمفكرين العرب . ما هي في نظرك الظواهر الايجابية والسلبية التي تستخلص من انتاجهم ؟

جاك بيرك : تسود الايجابية غالبا في نظري . اقول ذلك دون اي محاباة من قبلي. فلقد سمحت لي حياتي الطويلة ان اشهد العديد من المراحل التي مر بها العالم العربي ، واذكر فقط انه منذ اربعين عاما ، وكان لي من العمر عشرون عاما ، كان العالم ـ لا العربي فقط بل والاسلامي ـ في مجموعه من بحر الصين حتى المحيط الاطلسي تحت سيطرة الاستعمار . في حين اننا نشهد اليوم ان العالم العربي وبعض الدول العربية قد اصبحت على الصعيد الدولي مراكز فعل لا يمكن اهمالها في السياسة الدولية .

العالم العربي هو اذن في طريقه لاحتلال او لاستعادة مكانته على الصعيد الدولي والعالمي ، ومن المستحيل علينا ان نقول عكس ذلك . ولا يمكن تفسير ذلك بانتاج وتسويق النفط الذي يلعب دوره ولا شك في اعطاء العرب سمعة اكبر ، اذ يمكن التحدث انذاك عن القطن والفوسفات وما اليهما .

الخلاصة ان العالم العربي يحتل او يستعيد في مجموعه مكانته على كوكبنا . غير انه اذا كان على النظر ان يكون متفائلا حتما في هذا المجال ، فان عليه ان يكون اكثر تحفظا بالنسبة لما يجري داخل العالم العربي . وبهذا الصدد اعتقد ان سوء التفاهم الكبير الذي تحدثنا عنه هو الاهم : بعض العجز عن فصل مجالات المشروع عن القول والحلم وخلط هذه المجالات بهما . لكل من الاطراف شرعيته الخاصة ، شريطة ان يحدد له دوره الخاص به والذي يختلف عن الادوار الاخرى . كما انه لا بد من الاشارة هنا الى ما ذكرته قبل قليل ، واعني به ظاهرة الدول التي اعقبت المرحلة الاستعمارية بدلا من الظاهرة القومية . اذ على الرغم من المظاهر ومن كل ما يقال عن القومية، فان ظاهرة « الدولية » وليس القومية هي التي اراها قيد الانجاز في كل انحاء العالم العربي .

هذا النوع من الحلقة المفرغة الذي يرغم كل من في السلطة على اخماد كل معارضة لكي يبقى في السلطة ادى الى نتيجة مفادها انه لا يمكن احداث اي تقدم الا بالقيام بانقلاب .

وبايجاز فان هذه الظواهر المروعة تقودنا الى صب آمالنا ، لا في الصعيد الرسمي والمؤسساتي ، وانما في مجال الحركات غير الرسمية او المكبوتة : كالحركة النقابية ، وحركات الشباب ، والانتلجنسيا ، والجماهير الفلاحية ... وعلى هذا المستوى استطيع

القول : انني متفائل . لكن دعني اكرر صيغتي التي تعرفها : التفاؤلية في التاريخ لا تقوم على الاعتقاد بالسعادة، وانما على الاعتقاد بالمشكلة! والحق ان طرح المشكلات قد اغتنى كثيرا في العالم العربي منذ جيل ، وهذا هو اعظم ثناء يمكن ان اوجهه للناصرية. صحيح ان الناصرية قد فشلت في بلوغ اهدافها المباشرة ، غير ان المشكلات التي طرحتها على مجموع العالم العربي كانت اكثر تعقيدا وارفع مستوى على صعيد التاريخ من تلك التي طرحت خلال المساجلات السياسية في زمن زغلول الذي ، وان نجح بوصفه زعيما اكثر من نجاح عبد الناصر ، الا ان المشكلات التي طرحها على شعبه كانت اقل من تلك التي طرحها ناصر . ومن هنا فان التاريخ سيفرد صفحة خاصة لجمال عبد الناصر مثلما سيفرد لبعض الاوساط او القوى ذات الحيوية الخاصة في العالم العربي .

ـ اي اوساط تعني ؟

جاك بيرك : سأسميها لك ، لكنني اذ افعل لا اقصد من وراء ذلك القيام بتصنيف او توزيع جوائز نقوم به معا ضمن خليتنا كمثقفين . مثل هذه المحاولة ستكون ولا شك مثار سخرية ؛ فضلا عن اننا لا نستطيع ضمن حدود محادثة موجزة كهذه وصف الكل بالخير او بالشر . وبشكل عام ، فقد ادهشني في العالم العربي الطابع الايجابي لثلاثة جهود ، لثلاث محاولات تتفاوت في نجاحها في تحقيق منجزاتها ؛ بعضها قد مضى ، وبعضها ما يزال في نشاط ، واعني بها : الاشتراكية الناصرية، والاشتراكية البعثية ، والاشتراكية الجزائرية .

ولا اقول انه ليس ثمة محاولات اخرى خارج هذه المحاولات ، او انجازات صالحة او مقبولة بهذا القدر او ذاك ، وانما اعتقد ان علينا ، على صعيد المجموع العربي ، ان نمحور ملاحظاتنا باتجاه هذه المحاولات وكذلك ان نعقد آمالنا عليها .

ـ اريد ان اعود مرة اخرى الى فكرة المتوسطية . لقد سبق للدعوة الى المتوسطية ان اثارت خلال حقبة قريبة من تاريخنا الراهن كثيرا من الجدل ، بل والخصومة لدى المثقفين القوميين في العالم العربي بوجه خاص . ذلك انها قد فهمت على اساس انها بديل للحركة القومية العربية في حين انها ، كما عرضتها في ابحاثك ومقالاتك الاخيرة ، وكما نوهت بها هنا ، ابعد ما تكون عن مثل هذا التفسير ..

جاك بيرك : مرة اخرى يمكنك ان ترى التأثير السيء لهذه الواحدية Monisme العنيدة عند العرب . عندما اتحدث عن القرابات المتوسطية لفرنسا فهل تظن انني انسى قراباتها الشمالية ، اي الاوروبية الغربية ؟.

انني لا اريد لبلادي ان تحد مستقبلها او منظوراته على بعدها المتوسطي فحسب . اذ ان بين الشمال والجنوب في فرنسا ابعادا اخرى ليس البعد الاوروبي سوى واحد منها. وهل تظن انني استبعد منالسيرورة الفرنسية مثلا آفاق التبادل مع جزء كبير من افريقيا الناطقة بالفرنسية ؟ ان هذا الافق يدخل ايضا في الافق الفرنسي .

ان ما يدور في خاطري هو ان انضمام البلدان العربية الى مجموع ، يجري تحديد

معالمه فيما بعد ، يجمعها مع غيرها من البلدان المجاورة على ضفاف المتوسط لا ينفي ابدا انتماءها الافرو اسيوي . ان كل بلد ينقل ضمن ميدانه كمية من الامكانات ، وعليه يقع عبء اعادة توجيهها لا وفق محور وحيد وانما وفق عدة محاور . وها نحن من جديد نلتقي بالتعددية . لكن دعني اتعمق هنا في هذه المشكلة ؛ هذا الجانب المتوسطي الذي يعتبره كثير من العرب نقيضا مباشرا للتقليد الاسلامي، ألم يكن نواة التاريخ العربي برمته منذ الامويين؟ لقد كان التاريخ العربي يتجه دوما نحو المتوسط ، لا بل ان العرب قد اهملوا خلال تاريخهم انتماءهم الافرو اسيوي ولم يصبحوا الاسيويين الكبار الذين كان يمكن ان يكونوهم .

اما اليوم فان المكسب الجديد الذي ربحته حركتهم الحالية كان اهتمامهم بافريقيا واسيا . ومن هنا فانني اعتقد ان من الممكن توحيد كل ذلك في آن واحد .

خلال المراحل العربية والعثمانية تصور العرب المتوسط من وجهة نظر التبادل والخلاف . ثم غزت الحضارات المتوسطية اراضيهم وخاصة في اطار الاستعمار .. غير انني اعتبر اننا قد بلغنا اليوم طورا هو طور التجاوز ، والى هذا التجاوز ادعو العرب مثلما ادعو الفرنسيين .

- لبناء اندلس جديدة ؟. لقد تحدثت عنها في خاتمة كتابك الاخير .

جاك بيرك : بالضبط .

- اوليست هذه الدعوة مجرد يوتوبيا ؟

جاك بيرك : نعم انها يوتوبيا .

- وبها تؤمن ؟

جاك بيرك : نعم ، لانها يوتوبيا وليست عصرا ذهبيا . هذا هو الفرق .

- بمعنى انها المستقبل ؟

جاك بيرك : لانها المستقبل ؛ ولان اليوتوبيا ، هي زواج الحلم مع المشروع ، في حين ان العصر الذهبي هو زواج الحلم مع الاسف .

(باريس ، ابريل ، ١٩٧٨)